الغزو العراقي للكويت وأثره على الصحة النفسية

ضحوك البنوان (الكويت)

تعتبر دولة الكويت إحدى دول العالم التي أنعم الله عليها بالرخاء والوفرة المادية وهذه هي بعض أهم ركائز الاستقرار الاجتماعي والنفسي على مواطنيها، بل وعلى المقيمين على أرضها من مواطنين عرب وأجانب شاركوا الكويتيين ذلك الرخاء والأمان الاجتماعي لعشرات السنين.

وعندما يهز المجتمع الكويتي بكل فئاته عدوان وغزو ثم حرب كتلك الهزة التي مر بها عام 1990 أثناء الغزو العراقي الغاشم عليها، تقع الهزة موقع الزلزال على مجمل الكويتيين وإخوانهم المقيمين معهم ،وذلك ببساطة لانعدام الخبرات السابقة "بالأمان" بكل أنواعه المادي والسياسي بل والمناخي أو الجغرافي على مدى التاريخ الكويتي. فلا يكاد كل منزل أو مؤسسة اجتماعية كويتية حتى اللحظة تخلو من شكل من أشكال المعاناة إثر الزلزال النفسي الذي وقع عليها كحجر ثقيل بشكل مفاجئ ثار معه موج البحر الساكن والذي تعود السكون لعشرات السنين.

ولعل فئة الشباب والشابات إلى جانب الأطفال من الكويتيين من أكثر الفئات التي يتضح على نفسياتها وسلوكياتها آثار الغزو العراقي منذ ذلك الحين، وما عقبها من سنوات الترقب والخوف والتوجس من أية حركة مباغتة أخرى للنظام الذي مازال يحكم العراق أثناء نموهم وممارسة حياتهم التي لم تعد أصلا كما كانت أبدا.

وبشأن المراهقات على وجه الخصوص، قام المجتمع الكويتي بمختلف مؤسساته الرسمية والأهلية بإجراء دراسات عديدة لقياس أثار الحرب والغزو عليهن. وتبدو نتائج أغلب هذه الدراسات مخيفة للغاية وتثبت استمرار الآثار النفسية والاجتماعية على المراهقات تنعكس بالتالي عليهن في سن الرشد ومن ثم كأمهات لأجيال الغد.

أثبتت دراسة ميدانية حول " انعكاسات الغزو العراقي الغاشم على الحالة النفسية للطلبة والطالبات الكويتيين في المرحلة الثانوية وكيفية مواجهتها" للدكتورة فتحية عبد الرؤوف من إدارة الخدمة النفسية بوزارة التربية الكويتية أن الجنسين قد تأثرت حالتهما النفسية بعد الغزو.

ولنتناول الفتاة هنا على وجه الخصوص، أكدت الدراسة المتصلة بالطالبات في مختلف المناطق التعليمية بالدولة أن الفتيات أصبحن أقل إقبالا على الحياة ويملن للشعور بالاكتئاب والملل والحزن ويشعرن بعدم الثقة في الناس بل الشك في نواياهم.

وخلصت الدراسة الميدانية إلى أن المراهقات المذكورات يعانين من التوتر العصبي ويصعب عليهن التحكم في انفعالاتهن في مواقف العمل أو المناقشة. كما أصبحن يملن إلى عدم التسامح وإلى استخدام أسلوب العقاب مع المسيء ويؤيدون اللجوء إلى استخدام القوة لردعه. كما ارتفعت لديهن درجة الميل للسيطرة والتسلط في المواقف الاجتماعية .

واكتشفت الدكتورة فتحية عبد الرؤوف في دراستها الميدانية عددا من الخصال الإيجابية التي خرجت بها المراهقات من تجربة الغزو، تتمثل في الشعور الأكبر بالمسؤولية الاجتماعية نحو الوطن والاعتزازا بالانتماء له والرغبة في التفاني في خدمته أكثر اهتماما بما في المصلحة العامة. ومازلن بعد الغزو كما قبله يملن للمشاركة الجماعية وتحبذن التعاون وتكوين علاقات طيبة مع الآخرين.

وفي دراسة متخصصة أخرى استرعت اهتمامي، أشرف عليها الأستاذ قاسم الصراف وتبناها مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، اكتشف عددا من الآثار السلبية المخيفة التي ظهرت على المراهقات الكويتيات، والتي بالفعل هزت العديد من القيم لديهن لعل أكثر ما لفت نظري فيها هي، ضعف الثقة بالعرب. والحديث هنا عن يافعات مازلن في بداية حياتهن... كما كشف الباحث عن نتائج كثيرة أخرى رصدها لدى طالبات الثانوية بعد الغزو العراقي مثل، التشاؤم بمستقبل الكويت والإحساس بأن منطقة الخليج أصبحت محفوفة بالمخاطر والخوف من المجهول والشك في الآخرين وزيادة التوتر والشعور بمشاعر الغضب وكراهية كل شيء متصل بالعدوان العراقي ورفض أي صلح مع العراق مستقبلا والإحساس بالملل والسأم وازدياد "السرحان" في الفصل وزيادة الأحزان.

ولم تكن هذه الأفكار السلبية هي النتائج الوحيدة التي توصل إليها الباحث بل يضيف بأن هؤلاء يشاركن أهالي الأسرى والمفقودين الأسى الدائم والحزن، حتى وإن لم يكن لهن أقارب أسرى. كما لديهن شعور دائم بأن الحياة كئيبة ويعانين من فقدان الرغبة في منافسة الآخرين ولديهن الشعور بفقدان الكرامة حينما احتلت بلادهن، إلى جانب الشعور بالذنب لعدم التمكن من الدفاع عن الوطن أثناء الاحتلال.

والناظر إلى المجتمع الكويتي حاليا، لا يمكنه أن يتجاهل كل تلك المظاهر لدى شبابه والتي لم تكن بأي شكل من الأشكال موجودة قبل عام 1990، سنة الغزو العراقي لدولة الكويت فيغلب الشعور باللامبالاة والكآبة والاهتمام لتحديات الحياة خاصة الدراسة والمنافسة العلمية.

وفي هذا الإطار يوصي الباحثون والعلماء والمختصون في دراساتهم النفسية وزارة التربية والتعليم على وجه الخصوص، بتقديم خدمات إرشادية مناسبة لهذه الفئات في المجالات التي يظهر فيها التأثير واضحا، وهو المجال الانفعالي لمعالجة الصدمة التي ولدتها الأزمة وذلك عن طريق إعداد برامج إرشادية وعلاجية تتفق مع آثار الأزمة كما يدعون وزارة التربية كذلك إلى تعزيز القيم التنموية عند المراهقين والتي تحتاجها الكويت حاليا في مسيرتها الجديدة نحو البناء.